الجواسيس سرطان خبيث

د. عبد الستار قاسم

7/محرم/1421

نجحت إسرائيل في الآونة الأخيرة في القضاء على عدد من المجاهدين والمقاتلين في الضفة الغربية وقطاع غزة من خلال عمليات عسكرية متنوعة. منهم من تم استدراجه بطريقة سهلة بمدفعية الدبابات، وآخرون اسقطوا في كمائن أعدت مسبقا، بينما استعملت متفجرات يجري تشغيلها عن بعد ضد الآخرين، وقد نجحت أيضا في اعتقال عدد من المطلوبين لأجهزتها الأمنية بوسائل متعددة. وأظن أن الشارع الفلسطيني سيشهد محاولات للتصفية والاعتقال وبأساليب جديدة ومتجددة.

تنجح إسرائيل بسبب مشكلة كبيرة وخطيرة جدا طالما تم الحديث فيها والتنبيه حولها مرارا وتكرارا وعلى مـر الأيام والساعات والدقائق. المشكلة هي أن الجسد الفلسطيني منخور بكثافة وبصورة مأساوية من قبل أجهـزة الأمن الصهيونية. يعاني الشعب الفلسطيني من كثرة العملاء والجواسيس والمخبرين. إنهم هناك في كل ركـن وزاوية ومؤسسة ومجلس ولا يتأخرون في نقل المعلومات بدقة وسرعة للصهاينة الـذين جنـدوهم ودربـوهم وموّلوهم.

في كل مرة يتم الحديث عن هذا الموضوع والتشديد على خطورة العملاء والجواسيس يطلع علينـا مـن بـين الفصائل الفلسطينية الوطنية خاصة من يقول أنه لا يوجد شعب لا يوجد بـين صـفوفه جواسـيس، وظـاهرة التجسس ستبقى ملازمة لنا ما استمر الصراع بيننا وبين الإسرائيليين. وهذا هـو بالتحديـد المنطـق المتعـب والبائس الذي استندت عليه منظمة التحرير بفصائلها وبسلطتها الفلسطينية في تبرير الفشل والكسل وربما فـي المحافظة على الوضع كما هو. كل خطأ له تبرير وكل خطيئة لها فتوى، وكل مصيبة لها مشجب تعلـق عليـه التقصيرات.

لا يوجد شعب نقي تماما، ولا يخلو شعب من الاعوجاج والمعوجين، ولا توجد أمة مـن الملائكـة أو الأنبيـاء الطهوريين، لكن لا توجد أمة تنمو فيها ظاهرة الجواسيس والخونة والعملاء ولا تقاومها. الجواسيس في الضفة الغربية وغزة عبارة عن ظاهرة، إنهم هناك، إننا نراهم ونلمسهم ونتأثر مأساويا مما تصنع أيديهم. وإذا كـان الجواسيس المرئيين عبارة عن ظاهرة موجودة بينة للعيان، فكيف يكون الحـال بالنسـبة للجواسـيس غيـر المرئيين الذين يعملون في الخفاء وباسم الوطن والوطنية وباسم الدين وحب اليوم الآخر. الجواسيس المخفيون بالقطع عبارة عن وباء مرعب أو سرطان رهيب. إنهم يفككون أواصر الأمة ويقطعون أوصالها ويهدمون جهاز المنعة لديها.

مرت السنوات وتعددت الأحداث ونال الصهاينة منا قيادات وأفراد ومؤسسات وعائلات وفصائل وأحزاب، وعلت الأصوات تنادي بضرورة التصدي للظاهرة بمختلف الوسائل والإمكانات. لكن ما من مجيب. تارة كان يقـال أن بعض الظن إثم، وتارة أخرى أن مسألة ملاحقة الجواسيس مكلفة ماليا ولا نقدر عليها، ومرة يقال أن ملاحقـة الجواسيس ستؤدي إلى نزاعات عائلية وصراعات لأن المجتمع الفلسطيني ما زال يعاني من القبلية. والأسوأ أن البعض كان يدعي أن فصيله لا يقبل إلا الشرفاء والذين يشهد لهم تاريخهم الوطني الحافل بالنضالات.

كبر الجواسيس وعظموا حتى أصبحوا قادة ومدراء مؤسسات ومشرفين ومنظرين ومطلعين على دقائق الأمور وتفاصيل النشاطات. أصبح الجواسيس أصحاب نفوذ ومال وأصبحت لهم مراكز البحث والتدقيق والـدفاع عـن هموم ومشاكل الشعب الفلسطيني. ادلهمت الأمور حتى تأوه مناضل عتيق وقال" ليتنـي كنـت أدري لوجهـت الخنجر إلى قلبي قبل أن يبادرني بالطعن جاسوس." ومع اتساع قاعدتهم ونفـوذهم وأهميـتهم دفـع الشـعب الفلسطيني المزيد من التضحيات في النفوس والدماء النازفة والمعانيات الكبيرة والمؤلمة.

ثم جاء أوسلو ومعه اتفاقيات طابا التي ألزمت السلطة الفلسطينية بعدم ملاحقة المتعـاونين مـع إسـرائيل أو محاكمتهم، وألزمتهم أيضا بملاحقة الذين يهددون أمن إسرائيل، أي المناضلين والمجاهدين. أخـذ الجواسـيس يرتعون ويفرحون ويمرحون في ظل السلطة بينما تم زج المناضلين في المعتقلات لفترات طويلة دون محاكمات أو تهم موجهة ضدهم.

ببساطة تم استدراج عدد من المناضلين إلى كمين عسكري إسرائيلي في رفح ووقعوا في الفخ القاتـل. الشـيخ إبراهيم بني عودة استشهد بسيارة مفخخة سلمها له أحد أقاربه. أما شباب كفر قليـل فتمـت متـابعتهم حتـى أصبحوا في مرمى المدفعية. أطلق أحدهم(المتعاونون) النـار علـى الموقـع الإسـرائيلي ليعطـي الجنـود الإسرائيليين المبرر لإطلاق القنبلة. وفي قلقيلية تم تشجيع عدد من الشباب على القيام بعمـل عسـكري ليلـي فكانت النتيجة خمسة شهداء وعدد من الجرحى على يد كمين إسرائيلي. وبالأمس تم اغتيـال حسـين عبيـات وأنور حمارنة واغتيال أبي جهاد وزهير محسن ووائل زعيتر وماجد أبو شرار ويحيى عياش وفتحي الشـقاقي وكمال عدوان وغسان كنفاني وخال نزال، وغيرهم الكثير.

ألا آن للشعب الفلسطيني أن يتعلم من هذه الدروس القاسية؟

على الرغم من أن الأخطار محدقة ويعرف الناس صغيرهم وكبيرهم، ذكـرهم وأنثـاهم، شـبابهم وشـيبهم أن المخابرات الإسرائيلية تملك الوسائل الاستخبارية التقنية وأنها جندت من العملاء والجواسـيس إلا أن الحـس الأمني عندنا ضعيف جدا. لا يأخذ الفرد احتياطات أمنية للمحافظة على نفسه أو على الذين يعملون معه أو على من هم بجواره أو في دائرة النشاط. فمثلا يخرج الشاب يرشق الحجارة وهو مكشوف الوجه ومعـروف لمـن يحيطون به وجاهز للالتقاط صوره من قبل جنود الاحتلال في الطرف المقابل. ربما لا تكون هذه المسألة مهمة جدا بالنسبة لطفل، لكنها في غاية الأهمية بالنسبة لشاب بالغ خاصة إذا كان يقود مجموعـة مـن الشـباب أو الأطفال ولكن ما هو أكثر خطورة أن يكون الشاب قد خرج مكشوف الوجه وفي منطقة يعرفه فيها الآخرون لكي يعرف. إذ أنه ما تزال هناك مشكلة التظاهر والمفاخرة حتى لو أدى ذلك إلى مأسـاة تتمثـل فـي الاعتقـال أو الإعاقة أو القتل.

لا تتوقف المسألة عند قذف الحجارة، بل أن شبابا مسلحين في منطقة معينة يعرفون بعضـهم الـبعض، وفـي بعض الأحيان يعرف كل منهم الآخر. وهم يتداولون بحلقات غير مغلقة حول إطلاق النار على مواقع العدو، ولا توجد سرية في مداولاتهم. وهذا ما أعطى العدو معلومات وافية عن المسلحين ونوعية السلاح الذي يحملـون

وعن النوايا والنشاطات التي قاموا بها. وإن سألت أحد هؤلاء المسلحين يقر بالخطورة ويقول أنه يعلم أن العدو يعلم ما يفعل، وكأن الأمر يتعلق بالتظاهر بالسلاح و"الطخطخة" وليس بالقتال الحقيقي.

أما الفصائل فغالبا تكون مهتمة بظهور أعضائها في مختلف النشاطات النضالية وعلى مختلف المستويات وذلك من أجل كسب تأييد جماهيري أو على الأقل لأن تثبت للناس أنها فاعلة وقادرة على المشاركة في النضال من أجل تحرير فلسطين. بل أن سياسات الفصائل تقود إلى فضح أعضائها ونشطائها بفضل كونها فصائل عمل جماهيري أكثر منها تنظيمات مقاومة. اتجهت هذه الفصائل نحو مواجهات الحجر ونحو المسيرات والمهرجانات، وعملت على تسييس النقابات المهنية والجمعيات المتخصصة وتغذت على محتواها المهني لصالح المحتوى السياسي. وبهذا كانت الفصائل والتنظيمات والأحزاب تقدم هدايا معلوماتية مجانية للاحتلال. وبما أنها لا تدقق في هوية الشخص المنتمي إليها ولا توجد لها آليات لمتابعة الأفراد والتأكد من خلوهم الخياني والجاسوسي فقد استطاع الاحتلال ومختلف أجهزة المخابرات أن تدخل الصفوف وتتقدم في المراتب وتتعرف على كل الخفايا.

ركزت الفصائل على الأعداد لتعينها في عملية الانتخابات في مختلف المجالس واللجان مثل مجالس الطلبة ونقابات العمال ومجالس المؤسسات، الخ. تركز الهدف على الوجود السياسي والتأثير على الجماهير الفلسطينية، ولم يتركز على أعمال المؤسسات من أجل أن يتحسن عملها المهني فتدهور أداؤها المهني إلى درك أسفل مما أثر على تقدم المجتمع الفلسطيني سلبا. ولا يمكن إعفاء قيادة منظمة التحرير من المسؤولية، إذ كان همها عبر السنوات أن تجمع أكبر عدد من " الهتيفة " أو المؤيدين السذج الذين يجرون إما وراء الشعارات الرنانة أو المال الذي كان متوفرا لشراء أي شخص، ولم يكن همها مركزا على بناء تنظيمات سرية قادرة على الإيقاع بالعدو مقابل خسائر قليلة أو لا خسائر. ولا يمكن أيضا إعفاء الفصائل الفلسطينية التي لم تتعلم من تجاربها عبر عشرات السنين.

والمعنى أن الوضع الأمني على الساحة الفلسطيني خطير جدا، وأبناء الشعب الفلسطيني معرضون للخطر بسبب الاختراقات الأمنية وقدرات العدو الاستخبارية. التراث الأمني الفلسطيني ليس مشرفا وخلا إلى حد كبير من إجراءات السلامة والمحافظة على الذات في مواجهة العدو. التراث الاجتماعي لا يخلو من العوامل التي تشجع على التسيب الأمني مثل المفاخرة والتظاهر، والتراث الفصائلي والتنظيمي لا يقوم على سياسات أمنية محكمة وحكيمة، بل هو تراث تسيب ونزاع على السيطرة على الجماهير الفلسطينية أو كسب تأييدها. ولهذا لا مفر من المراجعة على الصعيدين الاجتماعي والتنظيمي إذا أردنا لأدائنا ضد العدو أن يتحسن، أو على الأقل إذا أردنا لأداء العدو ضدنا أن يتعثر.

المسؤولية تقع على عاتق الجميع، لكنها تعظم مع عظم الموقع. فالفصيل مسؤول أكثر من الفرد، والقائد مسؤول أكثر من الجندي، والمؤسسة أكثر من الموظف. وكاقتراح سريع لتحسين الأوضاع، من المفروض تشكيل مجلس أمني يخضع أفراده للفحوصات الأمنية المختلفة ليضعوا معايير أمنية لمختلف الهيئات الفلسطينية والآليات اللازمة للمراقبة والضبط، ومحاسبة كل خروج عنها. هذا إن أردنا أن نتعلم من الدروس القاسية التي ما زالت تلاحقنا.